

## الطفولة العربية والصراع على المصير : في إستراتيجية البناء الثقافي للطفل العربي

د. علي أسعد وطفة

كلية التربية ، جامعة الكويت

### اهمية مرحلة الطفولة

تشكل مرحلة الطفولة بأبعادها الإنسانية المنطقة الإستراتيجية الأعمق في نسيج الوجود الإنساني . وبعبارة أخرى تشكل هذه المرحلة منطلق الوجود الإنساني وغايته . ومن البداهة بمكان أن نقول بأن أية محاولة للنهوض بالمجتمع والإنسان لا تنطلق من هذه المنطقة الأكثر خطورة في معادلة البناء الحضاري محكوم عليها بالإخفاق والفشل .

وليس من قبيل الخطاب الأدبي إذا قلنا بأن شخصية الفرد تتشكل وتبلور على نحو كلي في مرحلة الطفولة الإنسانية . فالسمات والخصائص الثقافية التي يكتسبها الفرد في مرحلة الطفولة تعطي الطفل شخصية مرجعية تتميز بدرجة عالية من الثبات السيكولوجي والمعرفي في مختلف مراحل حياته المستقبلية .

وهذه الحقيقة تفرض نفسها علمياً وأدبياً في مختلف النظريات والفلسفات التربوية على مدى التاريخ بدءاً من أفلاطون مروراً بروسو ووصولاً إلى جان بياجيه وفرويد . فالإنسان كما تؤكد الوقائع والنظريات يتبلور في مرحلة الطفولة ويتشكل أخلاقياً وعقلياً بطريقة يصعب معها في المستقبل إحداث أي تغيير أو تبديل مهما كان نوعه . فإدراك الطفل للعالم وموقفه من الوجود ونظامه الإدراكي وعاداته العقلية وقدراته الإبداعية جميعها تتحدد بصورة أساسية في مراحل الطفولة بمختلف أبعادها وتجلياتها .

ومن هذا المنطلق العلمي والفلسفي نجد في التاريخ صرخات فلسفية مستمرة تدعو للتغيير الاجتماعي والإصلاح الإنساني من خلال التغيير في طريقة بناء الأجيال . وتلك هي الروح الفلسفية التي انطلق منها أفلاطون في كتابه « الجمهورية » حين أعلن بأنه لا يمكن إصلاح مجتمع بصغار أفسدهم كبارهم . كما أنها ذات الفكرة التي ينطلق منها روسو في كتابه « إميل » الذي يؤكد على تربية سليمة حرة تنفلت من عقال الراشدين كمنطلق للإصلاح الإنساني الشامل .

## مفهوم ثقافة الطفل

يعد مفهوم الثقافة Culture من أكثر المفاهيم تداولاً وشيوعاً ومن أكثرها غموضاً وتعقيداً<sup>(1)</sup>. فالثقافة في جوهرها فعل تأثير الإنسان في الطبيعة وفي الإنسان ذاته وهذا يعني أن الإنسان هو موضوع الثقافة وذاتها في آن واحد. وعلى هذا الأساس يعرف الفيلسوف الألماني كانط الثقافة « بأنها مجموعة من الغايات الكبرى التي يمكن للإنسان تحقيقها بصورة حرة وتلقائية ، انطلاقاً من طبيعته العقلانية » ، وبهذا تكون الثقافة في نظر كانط « أعلى ما يمكن للطبيعة أن ترقى إليه » . فالثقافة في بعدها الأنثروبولوجي أداة الإنسان في مواجهة المشكلات التي تعترضه . ومن هنا جاء التعريف الأشمل الذي يقول بأن الثقافة هي طريقة شعب في السلوك والحياة . فطريقة شعب ما في الحياة تجسد ثقافته وعلى هذا الأساس يستقيم تعريف تايلور للثقافة « بأنها كل متكامل من القيم والمعايير والتصورات والاتجاهات وأنماط السلوك التي يعتمدها شعب ما في الاستجابة لشروط وجوده » .

لا يمكننا عندما نتحدث عن ثقافة الطفل أن نستنسخ التعريفات الأنثروبولوجية وننسجها على مقياس الطفولة . إذ غالباً ما يجري تعريف ثقافة الطفل بوحى من تعريف تايلور الأنثروبولوجي للثقافة أو غيره من التعريفات الكلاسيكية للثقافة . ولا يمكن من زاوية منهجية أن ننسج تعريفاً لثقافة الطفل على منوال التعريفات الشمولية التي تقدم للثقافة . فعالم الطفولة يختلف عن عالم الكبار والراشدين بصورة نوعية . وبالتالي فإن مشكلات الطفولة واحتياجاتها وخصوصياتها النمائية تجعلنا في حلّ من الاستنتاجات المعرفية التي تتعلق بثقافة الراشدين وعالمهم .

تكمّن خصوصية ثقافة الأطفال في تركيزها على الطابع النمائي للطفل فهي تشكله وتنمّيه أخلاقياً ونفسياً وجسدياً وعقلياً ، وهذا يتضمن إشارة صريحة إلى الدور التربوي البنائي للثقافة في عالم الأطفال . وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن الثقافة الطفولية ثقافة بنائية تتجه إلى بناء الشخصية وتكوين الطفل إنسانياً . ومن هذا المنطلق الوظيفي فإن ثقافة الطفل تكون وثيقة الصلة بهويته ، إنها صيرورة إنسانية تولّد في الطفل عناصر نمائه وتكامله الإنساني ، وتؤدي دوراً مركزياً في بناء شخصيته وتكوين هويته المستقبلية . فثقافة الطفل ليست مجرد منظومة مكتسبات معرفية أو علمية أو قيمية مكدسة في عقله أو ذاكرته ، بل هي فعل تكويني يشتمل على مختلف الجوانب الوجودية في حياة الطفل وفي صميم وجوده الإنساني .

(1) الطاهر الليبي : سوسولوجيا الثقافة ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، اللاذقية ، 1987 ، ص 6 .

ثقافة الطفل بالتعريف الشامل صيرورة تفاعل بين الطفل والبيئة التي تحيط به ، وهي ما تأصل في وعي الطفل من قيم وتصورات وقدرات عقلية واتجاهات نفسية ومفاهيم ومنظومات سلوكية ، كما أنها صورة لمختلف الجوانب النمائية والأخلاقية والقدرات العقلية التي يمتلكها الطفل .

## اولا - التحديات الداخلية : الواقع الثقافي للطفل العربي

### 1- الثقافة الموجهة إلى الأطفال : أطفال من غير طفولة :

يعيش الطفل العربي حالة عدمية فيما يتعلق بالمؤثرات الثقافية التي تحيط به . فالأوضاع الثقافية والإنسانية التي تحيط بالأطفال العرب ولاسيما هؤلاء الذين ينحدرون غالباً من الفئات الاجتماعية المهمشة تأخذ طابعاً تراجيدياً ومأساوياً . ففي أغلب القرى الريفية على امتداد الجبال والوهاد والصحاري لا نجد مكتبات للأطفال أو كتباً ، كما لا توجد مسارح أو سينما أو كمبيوتر أو إنترنت أو حتى تلفزيون . وحتى المدارس المتوفرة في هذه المناطق فإنها تعاني من كل أوجه النقص وتفتقر إلى متطلبات الوجود الإنساني والتربوي : معلمون لا يمتلكون تأهيلاً علمياً أو تربوياً كافياً ، فصول متعددة في صف واحد .

وباختصار لا نستطيع أن نتحدث عن بيئة ثقافية حقيقية في ظل الأوضاع الحضارية التي تعيشها الأمة بل يمكننا وعلى خلاف ذلك أن نتحدث عن بؤس ثقافي بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من معنى . ولو أخذنا الجو العام للمعطيات الثقافية فإننا نعتقد بأن ما يقدم للطفل العربي من مثيرات ثقافية لا يمكنه بحال من الأحوال أن يعبر عن طموح ثقافي حقيقي للنهوض بالطفل العربي ثقافياً وروحياً .

تبين الإحصاءات الجارية وضعية مخجلة للمؤثرات الثقافية الموجهة إلى الأطفال في البلدان العربية ، وهذه الوضعية تشكل تهديداً خطيراً للمستقبل الثقافي للأطفال في البلدان العربية ، وباستثناء بعض الطفرات النوعية التي شهدتها بعض الدول العربية فإن الأداء الثقافي لوسائل الثقافة ووسائطها يعاني من أقصى درجات التخلف المخجلة . ومن أجل التدليل على هذه الوضعية المخجلة ثقافياً نستعرض ومضة إحصائية تتعلق بنصيب الطفل العربي من الكتب المخصصة له مقارنة بالأطفال في بعض دول العالم . ففي عام الطفل 1979 ، بلغ نصيب الطفل في الاتحاد السوفيتي 4.7 كتاباً وفي الولايات المتحدة الأمريكية 3.9 كتاباً وفي إنجلترا 2.6 كتاباً وبالمقارنة فإن نصيب الطفل العربي قد وصل إلى

« نصف كلمة » . لقد بلغ مجموع الكتب المترجمة إلى اللغة العربية منذ عصر المأمون حتى الآن نحو مئة ألف كتاب ، وهو يوازي تقريباً ما ترجمه إسبانيا في عام واحد (2) .

وهذه الصورة القاتمة تبلغ مداها فيما يتعلق بالمجلات الأسبوعية أو الشهرية المخصصة للطفل العربي فهناك سبع دول عربية لا توجد فيها أية مجلات أسبوعية ، وهناك خمس دول أخرى تقدم مجلة أسبوعية واحدة للطفل ، وهناك أربع دول تقدم مجلتين أسبوعيتين ، بينما تقدم قطر 4 مجلات والسودان ست مجلات ، ويصل هذا إلى أقصاه في لبنان حيث توجد عشر مجلات أسبوعية موجهة للطفل . وليست هذه الصورة أفضل من صورة المجلات الشهرية حيث نجد أربع دول لا تقدم أية مجلات شهرية ، وخمس دول تصدر مجلة واحدة ، أما بقية الدول العربية فتصدر ما يتراوح بين مجلتين وخمس مجلات شهرية (3) .

**نوعية الثقافة**، إن أغلب ما يقدم للطفل في المستوى الإعلامي ينتمي إلى فئة الثقافة الرخيصة والهابطة والتي تستهدف عقل الطفل ووجدانه ؟ إنها ترجمات وافدة لثقافة غربية تفيض بقيم غربية تقع خارج السياق القيمي للثقافة والإنسان في المجتمع العربي ؟ وبعضها إن لم يكن أكثرها يفيض بثقافة موجهة مضادة ومعادية للثقافة العربية بما تنطوي عليه من قيم سامية خلاقة تتميز بالرفعة والسمو والأصالة .

## 2- التصورات التربوية الكلاسيكية عن الطفل:

يشكل الوعي بطبيعة الطفولة واحداً من كبريات التحديات التي يواجهها الطفل العربي في مسار نموه سيكولوجياً ونفسياً وثقافياً . فالتصورات غير العلمية هي التي تسود وتهيمن في الساحة الثقافية العربية حول الطفل والطفولة . وهي تصورات تقليدية مثقلة بالأوهام والمغالطات التي أسقطها العلم الحديث وبددها التطور التربوي والسيكولوجي .

تبلور الثقافة التقليدية السائدة مجموعة من الرؤى والتصورات الخاطئة ، أهمها: أن الطفل راشد صغير ، وأن الطفولة مرحلة عابرة في تطور الإنسان ، وأن التربية يجب أن تسرع عملية النضج عند الطفل والانتقال به إلى مرحلة الرشد . والطفل كما يبدو في هذه الثقافة لا يمتلك خصوصية إنسانية

(2) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ، الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي : تقرير التنمية الإنسانية العربية للعام 2000 ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ، 2000 ، ص76 .

(3) المجلس العربي للطفولة والتنمية : التقرير الإحصائي السنوي ، العدد السابع ، القاهرة ، 2001 ، ص219 .

يتفرد فيها ، وهو مفعم بنزع فطري شرير ، وأن الشدة خير معلم ومرشد للطفل . وهناك فيض كبير آخر من الأفكار الخاطئة التي تتعلق بتربية الأطفال وأكثرها تصورات مشوبة بطابع خرافي وسحري في أحيان كثيرة تتعلق بالحجاب والتمايم والحسد والخرافات والأساطير .

وهذه الأفكار الخاطئة والتصورات الخرافية تشكل العناصر الأولى التي تدفع الطفل إلى دائرة الاغتراب والاستلاب . والعلوم السلوكية ترفض اليوم هذه التصورات التقليدية في النظر إلى الطفولة . فالطفولة مرحلة هامة وغائية في حياة الفرد ، والطفل خير بطبعه ، وكل طفل يشكل بصمة متفردة في الوجود ، والطفل ليس راشداً صغيراً بل هو كينونة متفردة مختلفة كلياً عن كينونة الراشد .

وباختصار شديد فإن الثقافة العلمية التي تتعلق بتربية الأطفال وتنشئتهم ما تزال غائبة في الساحة التربوية العربية . وهذه المعاناة لا تشكل غياباً في الساحة الثقافية الشعبية فحسب بل تنتشر في أوساط المثقفين وقد لا نبالغ إذا قلنا بأن هذه الثقافة العلمية الخاصة بفهم الطفل ومراحل تطوره واحتياجات نمائه والسبل العلمية لتربيته تسجل أيضاً حضوراً محدوداً حتى في الساحة الأكاديمية العربية المعاصرة . وفي تجربتنا التربوية التي تمتد لسنوات طويلة يكمن الخبر .

### 3- الوجه الاستلابي للتنشئة الثقافية في العالم العربي؛

فالطفل العربي يعاني من هيمنة أنماط تربوية تقليدية صماء تحاصره وتستلبه في الآن الواحد . فالطفل العربي يخضع لأنماط تربوية تعتمد مبدأ الترويض والإخضاع وقهر العفوية ، فالطفل في هذه التربية يروض ترويضاً يفقد معه إمكانيات المبادأة والإبداع .

وفي أسلوب التنشئة الاجتماعية يكمن واحد من المخاطر الكبرى التي تواجه عملية البناء الثقافي في البلدان العربية . فأغلب الدراسات تؤكد أن أسلوب التنشئة الاجتماعية السائد في الوطن العربي هو أسلوب تسلطي تمييزي مرعب . وهذا الأسلوب يدمر شخصية الطفل ويفرغ هويته الإنسانية من أكثر المضامين الإنسانية حضوراً في الإنسان . والطفل العربي تحت تأثير هذا الأسلوب التسلطي والديكتاتوري في التنشئة يفقد قدرته على المبادأة والمبادأة والإبداع ويفقد توازنه وتماسكه الإنساني ويعيش حياته في ظل الخوف والتردد وفقدان الثقة بالنفس والذات الإنسانية .

وهذه التربية تعود الإنسان على الإحساس بكل مشاعر الضعف والنقص والقصور والدونية والإحساس بالذنب . فالأطفال الذين يعانون من عقد النقص والقصور والدونية هم هؤلاء الأطفال الذين خضعوا لتنشئة اجتماعية تقليدية متصلبة في مراحل طفولتهم الصغرى . فأجواء التسلط تعطل

إمكانيات الإبداع وتدفع الفرد إلى دوائر الجمود والانصياع والسلبية (4). إن الطفل العربي لأحوج اليوم إلى تربية حرة تخاطب العقل في الطفل لا الذاكرة ، والنشاط لا الجمود ، والحرية لا الإكراه ، والغاية لا الوسيلة ، وهي في النهاية تخاطب الإنسان في الطفل وتعمل على إنماء حواسه الإنسانية .

#### 4- ثقافة التلقين:

من أشد الأساليب فتكاً بالعقل وتدميراً للإنسان وعصفاً بالطفولة أسلوب التلقين الذي تعتمده التربية العربية في تنشئة الأطفال وتربيتهم وثقافتهم . فالمدرسة والأسرة والمؤسسات الاجتماعية تعتمد التلقين في عملية تثقيف الطفل وتربيته . وتشبه الوسائل التربوية التلقينية المعتمدة في الأسرة والمدرسة « وسائل غسل الدماغ أي أنها وسائل ترديدية تعتمد أساساً على حشو الرؤوس بمادة كثيفة ثقيلة تزرع زرعاً في المخزون الذاكري لأطفالنا وتلاميذنا وطلابنا » (5) .

وغنى عن البيان أن الهدف من التلقين « هو نقل قيم المجتمع وعاداته الثابتة إلى صميم التركيب الذهني في الفرد » (6) . والفرد في سياق فعل التلقين يتلقى تركيبات فكرية جاهزة أو خلائط عقائدية مركزة ويؤسس عليها أنماطه السلوكية دونما قدرة على التأمل النقدي في طبيعة هذه الأنماط السلوكية أو في منظوماتها الذهنية المؤسسة لها ، وهذا من شأنه بالتالي أن يؤدي إلى تدمير إمكانيات الفرد العقلية والنقدية .

فالتلقين شكل من أشكال التسلط والقهر ، لأن التلقين عملية تفرض فرضاً على الطفل من الخارج . إنها عملية تطبيع ، أي انتهاك للعالم الداخلي للطفولة ، فالطفل عندما يلحق لا يسمح له بإبداء رأيه فيما يتلقن ، وهذا يشكل نوعاً من استباحة المجال الداخلي للإنسان . فالتلقين يرمج الطفل على إكراه منه . والمهم أيضاً أن عملية تلقين الطفل المعلومات تتم دون محاكمة منطقية ، حيث لا يسمح له بها ، ومع الزمن يصبح عقل الطفل موطناً ، لا بل مستعمرة لأنظمة فكرية لا تمت إليه بصلة ، ولكنه يعتاد مع الزمن ويفعل هذا الترويض المعرفي ، أن يركن إلى ما آل إليه وضعه ، وما حدث لعقله . بمعنى آخر لقد روض وخضع لبرمجة عقلية منهجية منظمة ومستمرة .

(4) انظر ، محمد عماد إسماعيل ، نجيب إسكندر إبراهيم ، رشدي منصور : كيف نربي أطفالنا - التنشئة الاجتماعية للطفل في التنشئة الاجتماعية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1974 .

(5) عبد الهادي عبد الرحمن - الذهنية العربية - منظور لغوي ، دراسات عربية ، عدد 4/3 ، كانون الثاني / يناير - شباط / فبراير 1993 ، ص 111-30 ، ص 16 .

(6) هشام شرابي : مقدمات لدراسة المجتمع العربي ، دار الطليعة ، بيروت ، 1991 ، ص 38 .

فالمعلومات المجزأة المتناثرة التي لا تلتئم في سياق معرفي منظم تشكل أخطر أداة في قتل إمكانية التفكير عند الطفل وهي كافية بذاتها لتحطيم قدرة الطفل على المحاكمة والتساؤل العقلي الحر وذلك لأنها تدمر كل نوع من أنواع حيازة الصور المركبة عن العالم في ذهن الفرد (7) .

إن اغتصاب عقل الفرد واستباحة عالمه الداخلي عبر التلقين ، فعل يتميز بطابع الاستمرار والديمومة ، فالعملية تبدأ على أشدها في الأسرة ، وتأخذ طابعاً ممنهجاً في المدرسة ، وتتحول إلى عملية منظمة في إطار الحياة الاجتماعية ، بما تنطوي عليه هذه الحياة من منظومات فكرية وأيديولوجية عرجاء .

## ثانياً- التحديات الثقافية الخارجية للعولمة

### 1- في مفهوم العولمة كقوة ثقافية حضارية مدمرة :

يعد مفهوم العولمة من أكثر مفاهيم القرن العشرين انتشاراً واستهلاكاً في دنيا الثقافة وفي عالم المعرفة والعلوم . ويعود هذا الانتشار الكبير إلى المرونة الهائلة لهذا المفهوم في التعبير عن أخطر مراحل تطور الإنسانية في مختلف مستويات الوجود والحياة الإنسانية المعاصرة .

فالعولمة بالتعريف هي حدائة فرضت شروط وجودها كنموذج عالمي للحياة ، وهي على الغالب حدائة غربية فيما يتعلق بمعطياتها العلمية والعقلية . باختصار شديد هي المرحلة الأعلى من مراحل تطور الرأسمالية العالمية الكبرى وهي أنها تعبیر عن روح الهيمنة الإمبريالية الغربية في نسختها الأميركية المصهّنة (8) . بل « هي فعل اغتصاب ثقافي وعدوان رمزي على سائر الثقافات إنها تعبیر عن انسحاق الإنسان أمام سطوة الآلة والتقدم العلمي وتمركز رأس المال وانعدام القيم الإنسانية والأخلاقية وسيادة منطق الربح والفردية والبقاء للأقوى من خلال تجارة السوق والمعلوماتية والاستلاب الثقافي للشعوب والدول والقوميات » (9) .

(7) التربية مستقبل الكويت لكيلا تكون المحنة درساً مهماً والمستقبل فرصة ضائعة أخرى ، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية ، الكويت ، أكتوبر 1991 ، ص 20 .

(8) أحمد يوسف داوود : في الأمن الثقافي العربي ، مجلة الموقف الأدبي ، مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق ، العدد 362 ، حزيران 2001 ( موقع اتحاد الكتاب العرب ) .

(9) عبد الله أبو راشد : العولمة - إشكالية المصطلح ودلالته في الأدبيات المعاصرة ، معلومات دولية ، العدد 58 ، خريف 1998 ، ص 19-25 ، ص 23 .

تعمل العولمة على بناء الإنسان ذي البعد الواحد في كينونة صنمية قوامها تكييف البشر اغترابياً مع منظومة القيم الرأسمالية الجديدة القائمة على أسس الربح والقوة والسلطة . إنها بالمعنى الثقافي هذه القوة التي تغفلق الإنسان وتحوله إلى وقود يغذي الجشع الإمبريالي الجديد بما ينطوي عليه من أوارام الشهوة إلى الربح والمجد والقوة والهيمنة .

لقد ابتدعت هذه العولمة الجديدة معاول هدم جبارة ، فأصبحت اليوم أكثر قدرة على تدمير الأعماق الدفينة في الإنسان ، إنها تتوغل في الأعماق وتعيد بناء الروح الإنسانية على نحو اغترابي يستجيب لمطالب الروح الفواستية الجديدة التي تحتطب لهب وقودها من مشاعر الإنسان وأحاسيسه . وباختصار هذه العولمة الجديدة تبتدع أخطر أساليب القهر الإنساني وتعمل على اغتيال كل المضامين الحية في الإنسان ، إنها تسعى إلى تدمير الروح الإنسانية التي كانت يوماً هي الحصن الأخير للمعاني الإنسانية .

## 2- التحديات الثقافية للعولمة :

تتصدع الأنساق الثقافية التربوية العربية المعاصرة تحت تأثير الصدمات الثقافية للعولمة . وتأخذ هذه الصدمات المدمرة صورة نسقين من التحديات ، يفرض أحدهما نفسه بقوة الاندفاعات الحضارية الزاحفة للعولمة التي تفرضها طبيعة التحولات التكنولوجية والانذفاعات الحضارية للإنسانية في مسار حركتها وتطورها . أما المجموعة الأخرى من الصدمات فتتمثل في حركة سياسية صهيونية عنصرية تركب أمواج العولمة وتستهدف الثقافة العربية بوصفها العمق الحضاري لثقافة قادرة تصمد في وجه التذويب الحضاري الذي تواجهه الهوية العربية الإسلامية .

فالعولمة الثقافية باختصار تعمل على تنميط الثقافة المحلية وتقويضها ، ومن ثم على تهميشها وتكريس تبعيتها ودونيتها ، وتجعل المجتمع أسيراً لتطلعاته الاستهلاكية أي تؤكد البعد الاستهلاكي للإنسان ، وتعمل فعلها في تذويب الانتماءات القومية والوطنية عبر مختلف الأدوات والتقنيات المعلوماتية .

فالهدف النهائي للعولمة هو « السيطرة على الإدراك وتعطيل فاعلية العقل وتكييف المنطق والتشويش على نظام القيم وتوجيه الخيال وتنميط الذوق وقولبة السلوك ، وبالتالي فهي تكريس لنوع معين من المعارف والسلع والبضائع وهي معارف تشكل ما يمكن أن نطلق عليه ثقافة



الاختراق . وهدف ثقافة الاختراق هو التطبيع والهيمنة حيث تقوم هذه الثقافة بتسطيح الوعي واختراق الهوية » (10) .

### 3- عولمة الثقافة الطفلية:

تعتمد العولمة في غزوها لعالم الطفولة على إغراءات لا تقاوم ومثال ذلك إغراءات الحاسوب التي تتمثل في برامج وألعاب ومعلومات مذهلة للعقل الإنساني . وهناك تأثيرات الصوت والصورة والإنترنت والأغاني والأفلام المدمجة التي تسحر العقل وتستلب لبّ الطفل بما تمتلك عليه من قدرة وسحر وشاعرية وإبداع . وهناك التكنولوجيا المذهلة التي تخلب العقل وتستلب الوعي بما فيها من غرائب وعجائب وهلوسة وهذا عداك عن سحر الصورة التلفزيونية وقدرتها المدمرة للعقل في استهواء النفوس والقلوب وتشكيل الأذواق (11) . وتعتمد العولمة الثقافية وسائل تقنية عالية الفعالية أهمها :

- الوسائط الإعلامية المرئية والمسموعة والمكتوبة ،
- وسائط الإنترنت والشبكات الإعلامية ،
- الوسائط الإلكترونية التي تتمثل في الحاسوب وفي الميديا ذات الصلة بالحاسوب مثل : أجهزة اللعب والتسليّة والأفلام المدمجة .

### 4- الوسائط الإعلامية المرئية : غزو الصور

في العولمة يرتبط الإنسان بالفضاء الكوني ارتباطاً أسطورياً ، وتتنوع أدوات هذا الاتصال عبر الهاتف الخليوي والتلفاز والإنترنت والفاكس والفضائيات ، وفي دائرة هذا الارتباط يغتذي الإنسان ويتكون ثقافياً على نحو فضائي وإلكتروني . فالفضاء الإلكتروني يشكل اليوم أذواق البشر وقيمهم وعاداتهم واهتماماتهم وهو يملك القدرة على تشكيل وعي الإنسان ومضمونه الثقافي ويعتمد هذا الفضاء أكثر النظريات العلمية تطوراً في محاصرة إدراك البشر ووعيهم . فالعولمة الفضائية في عملية السيطرة على وعي البشر تعتمد وسائل خفية مستترة وعلنية مضمرة ، مباشرة وغير مباشرة ، واعية ومن غير وعي ، شعورية ولا شعورية ، ذكية ومتناهية الذكاء ، قادرة وبالغة الاقتدار ، وذلك من أجل

(10) ميهوب غالب أحمد : العرب والعولمة ، مشكلات الحاضر وتحديات المستقبل ، المستقبل العربي ، عدد 256 ، حزيران / يونيو 2000 ، ص58-70 ، ص62 .

(11) انظر ، عبد الله الخياري : التعليم وتحديات العولمة ، فكر ونقد ، عدد 12 ، السنة الثانية ، أكتوبر 1998 ، ص45-82 ، ص45 .

محاصرة وعي الإنسان وتصفية قدراته النقدية ومن ثم استلابه وتوظيفه في خدمة التسليح الاقتصادي والسلعة . فالعولمة حولت الصراع من مجال تشكيل الوعي إلى مجال تشكيل الإدراك من خلال الصورة الضوئية وموض الصور .

ولا يفوتنا في هذا الصدد أن بعض التلفزات الأجنبية تروج للجنس والفضح والهمجية وتعمل على اختزال الطفل العربي إلى غرائزه البدائية والأولية . لقد عملت التلفزة الإسرائيلية منذ نصف قرن وما تزال على الترويج لأفلام الدعارة والجنس والفضيحة في محاولة صريحة للتأثير على الأجيال العربية المتعاقبة وتدميرها أخلاقياً وثقافياً وإنسانياً .

في هذا الامتداد المرعب لعالم الصورة في عصر العولمة تشهد المعرفة العقلية النقدية ضموراً وتراجعاً وتصدعاً وانحساراً يهدد القيم التقليدية ويبدد عطاءات الثقافة الإنسانية على نحو مروّع . وفي هذا كله تنهض قيم الفردية والأنانية واللذوية والنفعية والغرائزية على حساب القيم النبيلة الخلاقة التي تتسم بالعقلانية والغيرية والتسامي والإنسانية .

##### 5- تأثير المحطات الفضائية العربية بوصفها جزءاً في بنية العولمة الثقافية :

ولا يمكن للمحطات الفضائية العربية أن تكون خارج السرب « فهناك 33 محطة فضائية عربية رسمية وتجارية وهي في نسق فعاليتها الإعلامية تسير على النهج العولمي للشركات الاقتصادية الكبرى في ترويج السلع وبيع الأحلام والإثارة والمتعة والنجومية والبورصة وأسواق الأسهم والحظ والثروة والحظوة » (12) .

تفرض العولمة الفضائية على الطفل العربي ومختلف الشرائح الاجتماعية هوية استهلاكية مسطحة لا عمق فيها ولا معنى إنها ثقافة السلعة والتسويق والريح إنها ثقافة استهلاك تتمثل في «الهامبورجر» ، والأزياء ، والمأكولات ، و «البيتزا» ، والمياه الغازية ، والأفلام السينمائية ، وأغاني «مادونا» ، و «مايكل جاكسون» ، وملابس الجينز ، وماركات « كلفن كلاين» ، و « بينيتون » ، و « التيتانيك » ، وحرب النجوم (13) .

(12) مصطفى حجازي : العولمة والتنشئة المستقبلية ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة البحرين ، العدد 2 ، صيف 1999 ، ص18-47 ، ص26 .

(13) عبد الخالق عبد الله : العولمة - جذورها وفروعها وكيفية التعامل معها ، عالم الفكر ، الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، ديسمبر 1999 ، ص79-80 .

تعمل الفضائيات العربية وبحكم انتمائها وابتثاقها وظيفياً من صلب العولمة المتوحشة على اجتثاث التراث الثقافي للإنسان العربي وتركز بذلك على مرحلة الطفولة ، وهي تسعى إلى تفرغ مضامين الثقافة الشعبية والتراثية حيث يتم الترويج للثقافة الأمريكية المبتذلة مثل «ميكى روني ، وميكى ماوس ، وسوبرمان ، والوطواط ، والنينجا ، وحرب الفضاء ، وهارى بوتر» ، وهي عبر ذلك تسعى إلى طمس المعالم الثقافية للتراث العربي والإنساني في آن واحد الذي يتمثل في « أيزيس وأوزوريس ، والسندباد ، وعلى بابا ، وعلاء الدين ، وأبي زيد الهلالي ، والأميرة ذات الهمة ، وعلي الزبيق ، وعنترة » (14) . وفي هذه الثقافة تطمس معالم الثقافة العربية التي تتصل بصلاح الدين ، وخالد بن الوليد ، والظاهر بيبرس ، وقطر ، وجلجامش ... إلخ .

ومن المدهش أن وسائل التلفزة الفضائية العربية لا تقل خطراً وهمجية عن الوسائل الغربية والصهيونية أحياناً في قتل الروح النقدية عند الطفل وترويج الخرافات وتعزيز القيم الاستهلاكية والترويج لكل مفاهيم العنصرية والطائفية والعشائرية . فبعض المحطات العربية تدمر عقل الطفل والأجيال عشرة أضعاف ما تفعله المحطات الفضائية الغربية . فهناك بعض الفضائيات العربية الهامة تخصص برامج كاملة يومية تمتد لساعات من البث التلفزيوني للتبصير والتنجيم والترويج للخرافات والأساطير . وهناك بعض المحطات الفضائية العربية تمارس فعلها للترويج للتعصب الطائفي والعشائري عبر برامج مشهورة ومنظمة وهي تستهدف الإنسان العربي والثقافة العربية والوجود الإنساني العربي وقد أفلحت أكثر من أي محطة صهيونية في تاريخ الإعلام العربي .

وبعض هذه البرامج يدعو إلى الفتن العشائرية والطائفية في بعض البلدان العربية بصورة مباشرة ودون خجل أو وجل . أما ما تبقى من الإعلام فهو ترويج للدعايات الرخيصة والتسويق للأزياء والجنس وأدوات التجميل وكل ما من شأنه أن يدفع الطفل العربي إلى متاهة الاغتراب الثقافي والإنساني .

وتحت تأثير الضغط الإعلامي المنظم للفضائيات العربية منها والأجنبية أصبحت مظاهر الاغتراب والفردية والمادية والاستهلاك الترفي هي سمات سائدة في مجتمعاتنا العربية حيث « تحولت الثقافة العربية إلى ثقافة من نوع جديد ، حتى أصبح كل شيء الآن يمكن أن يباع ويشترى حتى روح

(14) عبد التواب يوسف : ثقافة الطفل العربي فيما بعد عصر العولمة ، ضمن : المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، التكامل الثقافي العربي في عصر العولمة ، تحرير : عز الدين إسماعيل ، ص 181-195 ، ص 188 .

الإنسان نفسه تخضع لقانون العرض والطلب» (15). إن العولمة في نهاية الأمر تفعل فعلها في غسل حقيقي لأدمغة الأطفال والبشر.

## 6- الحاسوب والإنترنت والشبكات الإلكترونية؛

يشكل الإنترنت - البدعة الأكثر تقدماً في عالم الميديا الحديثة - الوجه الآخر لهجمة الصورة وذبذبات الخيال ، وهو يتجاوز التلفزيون في مدى خطورته التفاعلية . إنه وسيلة أخرى أكثر خطورة لبيع الأحلام وصنع الأوهام واستلاب العقول وتدمير المرجعيات الطفولية .

تروج العولمة الثقافية عبر الإنترنت والحاسوب والفيديو والأقراص المدمجة نسقاً منظماً من الفعاليات المدمرة للعقل والترويج للثقافة الرخيصة التي تبدأ بالألعاب الإلكترونية التي تروج لثقافة العنف وتدمير الزمن الثقافي للطفل العربي إلى الأقراص المدمجة التي تنتهك الوجدان وتجرح المشاعر عبر قيم الجنس والعنف والاستهلاك .

ومع أن الحاسوب والشبكة وملحقاتهما يشكلان أعظم إنجاز إنساني ومن أكثر العطاءات المعرفية في تاريخ الإنسانية فإن الأطفال العرب وكنتيجة لغياب التوجيه ووجود الإغراء التجاري المستمر يقعون ضحية استهلاك مجنون للجوانب المدمرة في هذه الوسائل كاللعب والأفلام والتسلية والصور الفاضحة. وإذا كان الإنترنت كما بينا أداة معرفية وعلمية هامة في عملية التواصل سرعان ما استطاعت القوى الظلامية أن تركب أمواج العولمة الثقافية وتوظفها في خدمة ثقافة جامدة تفتك بالإنسان . ومن يدخل اليوم على شاشة الإنترنت سيجد أن الفكر الطائفي والعشائري والعنصري يحتل المواقع ويجلجل في الساحات . وهذا بذاته يزيد من المخاطر والتحديات التي تفرضها التقانة الحديثة ضد الطفل والإنسان في الوطن العربي .

لقد وظف الإنترنت في الوطن العربي حتى اليوم أفضل توظيف في إنتاج الخرافات والتعصب وقيم الطائفية وأمراض الفكر وخرافات التفكير وأساطير الكراهية . ناهيك عن الطبيعة الاستهلاكية لهذه الأداة التي استثمرت استثماراً مذهلاً في الترويج لقيم الفضيحة والجنس واللذوية حيث أصبح سلطان اللذة الجسدية هو الأمر الذي يهيمن في استخدام هذه الأداة العقلية . وكأن هذه الأداة قد

(15) جلال أمين : ماذا حدث للمصريين ؟ تطور المجتمع المصري في نصف قرن 1945-1995 ، القاهرة : دار الهلال ، 1998 ، ص 283 .

جاءت اليوم لتشكّل مهمازاً جديداً يدفعنا إلى مفازات التخلف والجنون وإلى متاهات القيم الظلامية والأفكار السوداوية التي تضح بأفصح القيم وأكثر تصورات الدنيا جنوناً وفضحاً وبأكثر قيم الوجود تخلفاً وفتكاً وهمجية . هذا في الوقت الذي تعتمد فيه المجتمعات الغربية هذه الأداة لمزيد من فعاليات التقدم والحضارة والإنتاج المعرفي والإبداع التقني في مختلف مجالات الحياة وميادينها .

#### 7- مؤشرات الضغط والإكراه العالمي : العولمة الموجهة :

تأخذ العولمة الثقافية في مجال الطفولة والتربية صورة أخرى تتمثل في التدخل المنظم من أجل إحداث موجة من التحولات العميقة في بنية الثقافة والتربية الموجهة للأطفال وهي تهدف في جوهرها إلى تسطيح الوعي وتشكيل الأطفال على مقياس الجشع الإمبريالي في مرحلة العولمة . ويأخذ هذا التدخل الموجه عبر المؤسسات الدولية والقنوات العالمية والمنظمات التربوية صورة محاولات تعمل على تطوير التربية والثقافة وتعزيز قدراتها الإنسانية ولكنها في حقيقة الأمر تخفي وراءها ما تخفيه . فالمحاولات التي تبذلها بعض المنظمات العالمية مثل اليونسكو واليونسيف وغيرهما تهدف إلى تحقيق متطلبات العولمة المجحفة وتسعى إلى تدمير الثقافة التقليدية بما يحقق طموح الجشع الإمبريالي . ويمكن أن نشير في هذا المقام إلى عدد من المحاولات الدولية وأهمها :

- هناك إلحاح دولي ( عبر المنظمات الدولية ) مثل اليونسكو على إدماج مضامين تربوية جديدة في الأنظمة التربوية مثل حقوق الإنسان والتربية السكانية والديمقراطية والتربية من أجل السلام الدولي . وعلى الرغم من أهمية هذه المضامين وضرورتها إلا أنها جاءت في الأصل لتعبر عن اتجاهات العولمة التي تسعى إلى تأكيد كل القيم والمعايير التي تصب في خدمة النظام العالمي الجديد (16) .

- هناك محاولات عالمية ، تصل إلى حدّ التدخل الصارخ أحياناً ، لربط التعليم بالأهداف التنموية العالمية ( وليس القومية أو الوطنية ) تحت تسميات مثل التنمية البشرية والتنمية المستدامة .

- تدخل المؤسسات المالية العالمية مثل البنك العالمي وبنك النقد الدولي والذي يقضي بإجراء إصلاحات في النظام التعليمي ، ولا سيما توصيات هذه المؤسسات بترشيد الإنفاق في التربية ، وتنويع مصادر التعليم وعقلنته لصالح الأهداف والإستراتيجيات الخاصة بالنظام العولمي . ولا يخفى

(16) عبد الله الخباري ، مرجع سابق ، ص 50 .

على أحد اليوم المرامي القربية والبعيدة لمثل هذا التدخل المالي الذي يهدف في نهاية المطاف إلى التحكم بمصادر التربية وأهدافها وتوجيهها لخدمة المصالح الاقتصادية العليا للشركات والدول الرأسمالية (17) .

- إن من أخطر مظاهر هذا التدخل الخفي للنظام العالمي الجديد هو هذا الانتشار السرطاني للمدارس الأجنبية أو هذه التي تعتمد مناهج أجنبية في التدريس والتعليم . وخطر هذا التعليم الأجنبي يبدأ من أسماء هذه المدارس وصولاً إلى مناهجها وقيمها وهوية العاملين فيها . وأصبحت أسماء هذه المدارس لها رنين إيجابي في أذهان المواطنين مثل : مدرسة الإبداع الأمريكي ، مدرسة الإبداع البريطانية ، ثانوية التعليم الملكي البريطاني ، المدرسة الإنجليزية ، المدرسة الأمريكية ... إلخ . وهذه المدارس حريصة على أن يكون مدرسوها من الجنسيات الغربية الأمريكية والبريطانية . ونحن نعتقد بأن هذه المدارس تتلقى مساعدات هائلة من المؤسسات الغربية وذلك من أجل خدمة مصالح وإستراتيجيات ما فوق قومية أو عالمية . واستطاعت هذه المدارس أن تستقطب وتصطفي أغلب أبناء الفئات النخبوية من موظفين كبار وتجار واقتصاديين ومثقفين وموظفين .

- ولا يمكن لنا في هذا السياق ، أن نتجاهل تنامي التأثير الكبير الذي يمارسه النظام الإعلامي العالمي ، عبر الإنترنت والفضائيات ووسائل الميديا والاتصال ، التي تعمل وبصورة مستمرة على تشكيل نظام تربوي ضوئي وإلكتروني ضاغط وفاعل ، يهدف إلى تصفية حساباته مع النظام التربوي التقليدي ، الذي يعاني من الانهيار والتراجع والضعف سواء في مستوى المدرسة والأسرة والمؤسسات التربوية الأخرى . وهذا النظام التربوي الفضائي الجديد يعمل ومن دون شك على تعزيز القيم العولمية الجديدة التي تصب في خدمة المصالح الاقتصادية الكبرى للمؤسسات والشركات العالمية .

- التدخل الأمريكي المباشر الذي يفرض نفسه دون حجل أو حياء علي الحكومات العربية لتغيير المناهج والمضامين التربوية تحت ذريعة التطوير والتحديث . ولا يخفى الأمر بأن هذا التحديث المطلوب يتجاوب مع تطلعات ومصالح أمريكا والصهيونية في العالم العربي .

---

(17) المرجع السابق نفسه .

## ثالثاً - في مواجهة التحديات

تواجه ثقافة الطفل العربي نسقاً من التحديات الداخلية التي تتمثل في بنية من الفعاليات التربوية والثقافية التقليدية التي تعمل على تخضير الطفل تخضيراً إنسانياً جامداً وتقليدياً عبر أساليب ومضامين التسلسل والقمع والتلقين والترويض ، وهي الأساليب التي تنتج وتعيد إنتاج الإنسان والمجتمع على نحو استلابي اغترابي . كما تواجه نسقاً من التحديات الخارجية التي لا تقل خطورة وأهمية وإيلاًماً وهي تحديات العولمة والاتجاهات المدمرة لثقافة أمريكية صهيونية .

إن نقطة البداية في مواجهة التحديات يجب أن تبدأ من مواجهة التحديات الداخلية للثقافة والتربية . ومن هذا المنطلق يجب على التربية في مجتمعاتنا العربية أن تعمل على تفكيك بنية التخلف السائدة وتخطيمها وتكثيف جهود الأجيال في اتجاه البناء الحضاري لعالم يفيض بقدرات العلم ويتحرك بطاقات الثورة المعرفية المتجددة .

فالتربية التقليدية تقف عائقاً أمام انطلاق المجتمع وتكبح قدرته على الانطلاق . ومن هذا المنطلق يتوجب على المجتمع أن يعمل على تفكيك بنى وأسس التربية التقليدية السائدة وإعادة بناء هذه التربية وفقاً لمعطيات العصر ومتطلباته في عصر العولمة وما بعد الحداثة .

فالتربية الحداثية التي ينشدها المجتمع هي التربية النقدية التي تفعل كل الطاقات والإمكانات المتاحة في اتجاه بناء الإنسان بمواصفات حداثية متقدمة تتجلى في تكريس التفكير النقدي المنطلق ، والعقل المركب الإبداعي المجدد ، الذي يتصف بدرجة عالية من القدرة على تفكيك الظاهرة وتحليلها ، وهو العقل الذي يرفض المعاني الوحيدة للظواهر ويبحث عن بدائل متعددة في كل موقف . إنها التربية التي تسمى إلى تكريس قيم التسامح والديمقراطية وقبول الآخر وتحقيق الذات .

وفي المستوى الثقافي ولاسيما في بعده الإستراتيجي المتمثل في ثقافة الطفل والأجيال فإن العمل يجب أن ينطلق من فهم علمي عميق وشامل لعوامل التخلف الثقافي والتربوي في مختلف الاتجاهات الحياة التربوية والثقافية .

ومن ثم يتوجب العمل على تدمير أركان وأسس التخلف الثقافي في نسق العملية التربوية من أجل بناء ثقافة طفلية إبداعية قادرة على الإنتاج والحضور والفعل في مختلف الميادين والاتجاهات . وليس خافياً على أهل البصيرة بأن عملية تشكيل الأطفال ثقافياً تعني إنتاج وإعادة إنتاج المجتمع ثقافياً واجتماعياً .

## 1- نحو ثقافة نقدية للطفل العربي،

إن المعرفة الحققة هي تلك التي تؤهل البشر لمواجهة عالم شديد التعقيد ، سريع التغير ، إنها معرفة الحياة ، ومعرفة عن الحياة ، وحياة قائمة على المعرفة (18) . إن الثقافة التي نريدها لأطفالنا في عصر العولمة هي هذه التي تمكنهم من الإبصار في الظلام ، والانتصار في عالم الهزيمة ، هذه التي تجعلهم أكثر قدرة على الكشف والإبداع والخلق والابتكار في أكثر الظروف حلكة وصعوبة ، إنها الثقافة التي تجعلهم أكثر قدرة على مواجهة التحديات وتسجيل الانتصارات في مختلف ميادين الحياة الاجتماعية والثقافية .

ومن هذا المنطلق يتوجب على التربية العربية بمؤسساتها المختلفة أن تساعد الأطفال على تجاوز هذه النظرة التي يحكمها الوعي اليومي ، وأن تطور لديهم وعياً علمياً يساعدهم في تلقف الحقيقة بأسلوب علمي يتميز بطابع الأصالة والعمق ، وهذا الوعي العلمي المطلوب يساعد الناشئة على التحرر من إصار تجريتهم الحسية المباشرة ، والتحرر من إكراهات الاستنتاجات العامة المباشرة ، ويمكنهم بالتالي أن يمتلكوا القدرة على كشف العلاقات الجوهرية التي تقوم في بنية الأشياء والظواهر ، وذلك على خلاف ما يجري في نسق الوعي اليومي المباشر .

فالتربية صيرورة يكون فيها الإنسان ذاتاً وموضوعاً في آن واحد ، ومن هنا يترتب على التربية أن تنمي في الإنسان الحس النقدي ، وأن تعلمه كيف يضع موضع الشك أكثر الأفكار عمومية في انتشارها وقدسيتها في مركزها (19) .

وضمن هذه الإستراتيجية الثقافية التي نطرحها في مواجهة التحديات في عصر التقانة والعولمة والحدائث يتوجب علينا جميعاً وعلى المعنيين بالأمر من قادة وسياسيين ومربين ومثقفين العمل على تعزيز مجموعة من الأفاعيل الحضارية والقيم الثقافية عند الطفل أهمها (20) :

أولاً- تعظيم قيمة العلم والمعرفة والعقلانية في مختلف أنساق التربية والتعليم عند الطفل العربي .  
ثانياً- تعظيم قيمة العمل والإنتاج على نحو إبداعي والتحرر من مفهوم العمل بوصفه روتيناً يومياً  
نؤديه لضمان كسب الحياة وإعادة إنتاج طاقة العمل .

(18) برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ، مرجع سابق ، ص70 .

(19) فيليب أوجيه : التربية من أجل الديمقراطية ، المرجع السابق ، ص33 .

(20) انظر ، خلاف خلف الشاذلي : المجتمع العربي بين مخاطر العولمة الثقافية وتحديات ثقافة العولمة ، شؤون عربية ، العدد 107 ،

سبتمبر / أيلول 2001 ، ص86-106 ، ص101 .



ثالثاً- التخلص من الرواسب والقيم الثقافية المعيقة للتنمية مثل التواكل والهدر وتأكيد روح المسؤولية الموضوعية والتفاني في خدمة العمل بوصفه جوهر الإنسان وغايته .

رابعاً- إعطاء الأولوية للتنمية البشرية على أساس أن الإنسان هو صانع التنمية وغايتها في الآن الواحد وأن التغيرات تكون في وعي الناس وقيمهم ونوازعهم قبل أي شيء آخر .

خامساً- التأكيد على قيم الديمقراطية والعدالة والمساواة وتأكيد أهمية المشاركة والحوار والانفتاح<sup>(21)</sup> .

في عصر العولمة فإننا في أمس الحاجة إلى « بناء عقل منفتح غير متعصب ، ونقدي يقبل الاختلاف ويسعى للاتفاق على أسس مقبولة عقلية وعقلانية ، فنحن إذاً محتاجون إلى تفتح فكري إلى روح نقدية ، ومحتاجون إلى فكر يحارب الإحباط الذي في أنفسنا أو الذي في نفوس بعضنا»<sup>(22)</sup> .

« نحن في حاجة إلى التحديث وإلى الانخراط في عصر العلم والثقافة كفاعلين ومساهمين . ولكننا في حاجة أيضاً إلى مقاومة ثقافة الاختراق وحماية هويتنا القومية وخصوصيتنا الثقافية من الانحلال والتلاشي تحت تأثير موجات الغزو الذي يمارس علينا وعلى العالم أجمع بوسائل العلم والثقافة . والوسيلة في كل ذلك واحدة هي اعتماد الإمكانيات اللامحدودة التي توفرها العولمة نفسها ، أعني الجوانب الإيجابية منها وفي مقدمتها العلم والتقانة »<sup>(23)</sup> .

لن تكون العولمة خطراً على الهوية في مجتمعات تفيض بالعقول القادرة على الإبداع والابتكار « في سياق حركة اجتماعية عنوانها وأفقها المحرك هو التنمية الشاملة ، وتوسيع إطار الديمقراطية وتعزيز مؤسسات المجتمع المدني ، وتفعيل قيم الحوار والديمقراطية ، وقبول الرأي والرأي الآخر ، وفي القلب من تلك الحركة الاجتماعية توفير حرية التفكير والبحث العلمي »<sup>(24)</sup> .

## 2- التربية في مواجهة العولمة:

إن أي مشروع نهضوي يوضع للخروج من وضعية الأزمة الحضارية التي تعيشها الأمة يتضمن في أعماقه مشروعاً تربوياً قد يكون واضحاً أو مضمراً ، ولا يمكن لأي مشروع تربوي أن ينطلق دون

(21) المرجع السابق نفسه .

(22) محمد عابد الجابري : مستقبل الثقافة العربية في ظل العولمة الثقافية ، الكلمة ، العدد 18 ، السنة 5 ، شتاء 1998 ، ص137-138 ، ص138 .

(23) المرجع السابق نفسه .

(24) سليمان العسكري : قرن يمضي ... قرن يبعث - العرب والقرن الحادي والعشرون ، مجلة العربي ، العدد 493 ، ديسمبر / كانون الأول 1999 ، ص18 .

أن يحدد غايته الإنسانية التي تتمثل في صورة الإنسان الذي يجب على التربية أن تقوم بإعداده . ومن هذا المنطلق يجب على التربية العربية أن تقدم تصوراً واضحاً لصورة الإنسان الذي يجب أن تعمل على تكوينه في مرحلة العولمة إذا كانت تريد أن تتبنى مشروعاً حقيقياً للنهضة الثقافية والحضارية في المجتمع . وهذه الصورة غالباً ما تكون منظومة من السمات والخصائص الإنسانية التي تمكن الإنسان من التجاوب الفعال مع مقتضيات هذه المرحلة الحداثية بتعقيدها ومتطلباتها .

في مواجهة مركّب التحديات التي تواجه الثقافة والحضارة يجب أن نبحت عن الإنسان الذي يمتلك القدرة على المواجهة لأن قدر المواجهة قدر إنساني بالدرجة الأولى . وفي دائرة هذه المواجهة يجب أن نبدأ بمواجهة التحديات الداخلية أي تحديات التخلف لأن أية محاولة نهضوية لا تنطلق أو تبدأ بمواجهة تحديات التخلف ستنتهي إلى مواقع الهزيمة والفشل . ولذا فإن البحث عن موقع في هذا العالم يتطلب منا نحن العرب أن نرسم خارطة التخلف الذي يجثم على صدر الأمة وعلينا أن نضع إستراتيجيات كبرى تخرجنا من هذه الدائرة المظلمة إلى موقع مناسب في الحضارة الإنسانية .

وفي دائرة هذه المعادلة يجب علينا أن نؤكد أيضاً بأن بناء جيل عربي نقدي قادر على المواجهة وعلى التصدي والمشاركة والحضور في عالم متوحش يشكل منطق كل محاولة نهضوية وأسسها الحضاري . فالبدء تكون في الداخل ومن هذا الداخل ننطلق من المنطقة الإستراتيجية فيه أي في عالم الطفولة والأطفال حيث يجب أن نبدأ وننطلق نحو المشاركة في بناء الحضارة وإنتاجها . فالطفل وهو الصورة الأولى للإنسان يشكل الرهان الأساسي في عملية النهوض الحضاري ، ومن أجل بناء الإنسان بدءاً من الطفولة يتوجب علينا أن نرسم الغايات التربوية الكبرى لصورة الإنسان الحضارية التي نسعى إليها ، وأن نحدد الوسائل والغايات ، وأن نرسم الإستراتيجيات ، من أجل الوصول إلى هذه الغاية . فمصير العرب في القرن القادم « يتوقف على الكيفية التي سيعدون بها أبناءهم تربوياً في القرن الواحد والعشرين » (25) .

في البداية علينا أن نرفض كل صيغ التربية التقليدية السائدة ، يجب علينا أن نصب اللعنة على أساليب القهر الثقافي وأن نرجم التلقين وأن نبني فلسفة تربوية نقدية في تربية الأطفال والعناية بهم وهدايتهم إلى سبل المشاركة في بناء الحضارة الإنسانية .

(25) المعهد التربوي للتخطيط في الكويت : وثيقة تعليم الأمة العربية في القرن العشرين « الكارثة والأمل » ، التقرير التلخيصي لمشروع مستقبل التعليم في الوطن العربي ، تحرير سعد الدين إبراهيم ، القاهرة ، 18-30 إبريل / نيسان 1992 ، ص 4 .

في هذه المواجهة يتوجب على التربية العربية أن تعمل على تعطيل طاقة الجمود وتصفية عناصر التخلف في الثقافة عند الأطفال ، وأن تمنع على القيم الثقافية الظلامية حضورها في عملية بناء عقل الطفل وسلوكه . فالطفل العربي يحتاج اليوم إلى بصيرة جديدة وعقل منفتح نقدي يمكنه من مواصلة الحضور الإنساني للأمة العربية في المستقبل القريب والبعيد . ومن أجل هذه الغاية يجب أن توفر للطفل ثقافة تناسب هذا المقام وتناسب هذه المرحلة التاريخية بعيداً عن التعسف التربوي والقهر والتسلط والتلقين والترويض الذي وصفناه في مجال التنشئة الاجتماعية التي يتلقاها هذا الطفل .

إن الخيار الأصيل للتربية العربية يجب أن يكون في العمل على بناء أجيال قادرة على صنع المصير ، أجيال لا تنغلق في التراث ولا تذوب في حمأة العولمة والحدثة ، أجيال تصنع التاريخ وتبدع الحضارة الإنسانية وتشارك فيها .

في عصر العولمة يتوجب على التربية أن تعمل على بناء إنسان جديد بمواصفات وسمات جديدة تمكن الأجيال من مواجهة التحديات والتكيف بمعايير إبداعية خلاقة ، إنها التربية التي تعلي من شأن العقل وتصقله على إمكانيات النقد والخلق والابتكار والإبداع ، تربية تحرر العقل من الأوهام والخرافات وعممة التقاليد والأساطير ، تربية مؤمنة بالله والإنسان والحضارة ، تربية مستمرة ذاتية متغيرة لا تقف عند مرحلة معينة أو آفاق مرسومة ، تربية ذاتية مستمرة متغيرة في مجتمع يسوده قانون التغيير ، تربية تعزز مبدأ الاختلاف وترفض التسليم والاستسلام للأفكار الجاهزة والمقولات والأيديولوجيات السائدة .

ومن أجل أن تكون هذه التربية في مستوى التحديات المصيرية يجب عليها أن تعمل على بناء إستراتيجية تربوية أصيلة تأخذ في اعتبارها نسقاً منظماً من الفعاليات المنظمة التي تشكل ركائز بناء جيل قادر على امتلاك المصير ومواجهة التحدي والمشاركة في بناء الحضارة وإبداعها . ومن أهم المحاور الأساسية لهذه الإستراتيجية المنشودة يشار إلى أهمية بناء العقل المنهجي والعقل المنفتح المسائل وبناء منظومة من القيم الحضارية التي تشكل منطلق كل بناء إنساني أصيل .

فالوظيفة الأساسية للتعليم في المستقبل لا تكون في النقل المنظم للمعلومات بل في تكريس القدرة على التكيف والتجاوب مع التغيرات المستمرة ، فالتوجهات الحديثة للسياسات التعليمية في الدول المتقدمة موجهة نحو التعليم الإبداعي ( بناء الإنسان المبدع القادر على التعامل مع التقنية

الحديثة الضرورية لمواجهة متطلبات المستقبل ) وهذا يتطلب تغيرات جوهرية في النظم التعليمية خاصة التعليم العالمي والتقني (26) .

نحن مطالبون اليوم بتربية جديدة تعتمد أسساً جديدة ، تربية تنطلق من مبدأ التغيير وتسير على هدي الإبداع وتعتمد الحوار وتعلي من القيم الديمقراطية ، تربية منفتحة تعتمد على معطيات التكنولوجيا ومبدأ الاستمرارية وقيم التعاون والتكامل ، إنها في النهاية تربية علمية عقلانية ناقدة . هذه التربية تأتي رفضاً شاملاً للتربية التقليدية التي تعتمد على التلقين والجمود والذاكرة والتسلط والانغلاق واللحظات العابرة تلك التي تعتمد على التجزؤ وترفض العقلانية والروح النقدية في المجتمع .

### 3- نحو إستراتيجية تربوية للنهوض بثقافة الطفل العربي في زمن التحديات؛

يتضمن العمل في اتجاه بناء ثقافة نقدية عند الطفل العربي منظومة متكاملة من الطموحات الثقافية التي يمكنها أن تتجاوز مع العصر بتحدياته وإشكالاته . فالطموحات والأهداف يجب أن تنسجم مع طبيعة التحديات التي يفرضها النظام الفكري الجديد للعولمة والحدثة وما بعد الحدثة . وفي هذا المستوى يجب على التربية العربية أن تعتمد منظومات من الفعاليات والجهود الكبرى لتحقيق هذه الغايات والطموحات التي نستجمع أكثرها أهمية في العناصر التالية التي يمكنها أن تشكل نسقاً إستراتيجياً في التكوين الثقافي للطفل العربي في زمن التحديات الكبرى :

#### (أ) بناء العقل العلمي؛

تتطلب هذه المرحلة بناء العقل العلمي عند الناشئة والخروج من دائرة التقليد ، ويتضمن هذا التوجه العمل على تحرير هذا العقل من أمراض الاستظهار والحفظ والتلقين ، ومن ثم بناء الأسس المنهجية للتفكير الحر الذي يمكن الطالب من امتلاك أصيل للقدرات الذهنية والعقلية التي يقتضيها منطلق الحياة والتفكير في عصر العولمة . ويتطلب ذلك تطوير مهارات الطلاب الإدراكية والعقلية ، وتزويدهم بمهارات التحليل والتركيب والتفكيك والتفسير والافتراض والاكتشاف ، وتمكينهم أيضاً من مختلف المنهجيات العقلية والفكرية ، التي تعطيهم القدرة على فهم الظواهر وتحليلها ومن ثم اتخاذ القرارات الذكية في المواقف الصعبة . فتعليم الطلبة الفكر الإبداعي ، والتفكير الناقد ، والمشاهدة

(26) بدر سعيد علي الأغبري : العولمة والتحديات التربوية في الوطن العربي ، مجلة التربية ( صادرة عن وزارة التربية والتعليم في دولة البحرين ) ، العدد الأول ، السنة الأولى ، أكتوبر / تشرين أول 2000 ، ص 9-23 ، ص 21 .

النقدية ، والإصغاء النقدي ، والقراءة النقدية ، والتربية الروحية الحقيقية لا الخرافية ، كل هذا يمكن الأجيال من مواجهة مخاطر ما يقرؤون وما يشاهدون ويسمعون وما يعايشون من تحديات عصر العولمة وما بعد الحداثة (27) . في هذا المستوى يجب ألا يخضع الطفل إلا لمنطق العقل وندائه الداخلي وبالتالي أن يرفض كل المضامين التقليدية التي لا تنطلق من هذا التوجه الخلاق للعقل العلمي .

#### (ب) بناء العقل المتساؤل؛

ويتطلب هذا أن يعمل النظام التربوي على تأسيس العقل على مبدأ التساؤل المنهجي ، وهذا يعني أن يكون التساؤل المستمر والدائم حركة فكرية ذهنية تتميز بطابع الديمومة والاستمرار . لأن التساؤل والتساؤل المستمر دون توقف يشكل منطلق العقل الباحث ومنطق الروح الإنسانية المتوثبة دائماً إلى المعرفة . فالتساؤل هو الديناميت الذي يفجر ماء العقل ويحرك فيه القدرة اللامتناهية على طلب التحليل والتفسير . التساؤل والتساؤل المنهجي المستمر هو أداة العقل في محاربة الصدا الذهني والاستكائة الفكرية وهو منطلق كل تفكير منهجي . فالمعرفة بحد ذاتها ليست غاية التربية وهدفها بل أصبحت الغاية هي تمكين الأطفال والناشئة من تحديد مصادرها والوصول إليها وتصنيفها وتوظيفها في حل المشكلات ومواجهة التحديات . « لقد أصبحت القدرة على طرح السؤال في هذا العالم المتغير الزاخر بالاحتمالات والبدائل تفوق أهمية القدرة على الإجابة عنها » (28) .

#### (ج) بناء العقل النسبي؛

الحقيقة دائماً نسبية والمطلق الوحيد يتعين في ذات الله وحده وقدرته . وهذا يعني أن بناء المطلقات في العقل يؤدي إلى وضع العقل في زنانات أبدية . وهذا بدوره يدفع إلى التعصب والدوغماتية ولذلك فإن الإيمان بنسبية الأشياء يتيح لنا بناء العقل المنفتح الذي يرسم للظاهرة الواحدة مدأ واسعاً من الاحتمالات وهذا يجعل العقل أكثر نضارة وحيوية وانطلاقاً وفعلاً . فالحقيقة متغيرة دائماً والكون يتحرك في دائرة التغير والتبدل من حال إلى حال وجل حال الذي لا يتغير .

(27) حسني عايش : الحداثة وما بعد الحداثة وتأثير كل منهما على المجتمع والأسرة ، دراسات عربية ، السنة 33 ، العددان 4/3 ، كانون الثاني / يناير - شباط / فبراير ، ص76-95 ، ص95 .

(28) هدى حسن حسن : التعليم وتحديات ثقافة العولمة ، مجلة كلية التربية ، جامعة عين شمس ، العدد 23 ، 1999 ، ص185-219 ، ص210 .

#### (د) بناء العقل على مبدأ الاختلاف؛

الاختلاف مبدأ الوجود والتطابق هو استثناء مستحيل . هذه القاعدة يجب أن تؤخذ منطلقاً في بناء منطق الأجيال لقبول مبدأ الاختلاف ورفض التماثل والتطابق . وهذا المبدأ هو مبدأ العقل الحر الذي يبحث عن الاختلاف ويرى فيه ناموساً كونياً لامتناهياً في حدود . وهذا بدوره يجعل العقل أكثر قدرة على الحركة وأكثر ميلاً إلى الإبداع . لأن الإيمان بمبدأ الاختلاف يجسد هدماً لكل الحواجز التي تمنع العقل من الانطلاق والإبداع . وفي هذا المبدأ تتحقق في النهاية منطلقات قبول الآخر على مبدأ الاختلاف وقبول الأفكار المضادة دون تعصب أو صدود وانكفاء .

#### (هـ) بناء العقل على مبدأ التغيير الدائم؛

لا ثبات في هذا الكون . فالعالم يتغير بإيقاعات ضوئية ، وحقائق الأمس هي أباطيل اليوم وحقائق اليوم ستكون ضلالات الغد . التغيير مبدأ كوني تفره الشرائع والنواميس والقوانين السماوية . والمشكلة اليوم ليست في إقرار هذه الحقيقة بل في طبيعتها . فالتغيير اليوم وعلى خلاف الأمس أصبح ساحقاً لطبيعة الأشياء . ففي ظل التدفق المعلوماتي يتوجب على المرين أن يأخذوا بعين الاعتبار أن مناهج المدرسة التي تدرس اليوم قد تفقد مبررات وشرعية وجودها في غضون فترة زمنية قصيرة جداً . ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن ما يتعلمه الطالب اليوم في المدرسة قد يفقد دلالاته عندما يتخرج من المدرسة . وتأسيساً على هذه الحقيقة يجب إعداد الطلاب لعصر متغير بعقل متغير وإيمان بالتغيير وتزويدهم بمختلف الأدوات والقدرات والإمكانيات الذهنية التي تجعلهم أكثر قدرة على مواجهة احتمالات التغيير . وهنا يتوجب أن نعلم الطلاب والناشئة كيف يمكنهم مواجهة التغييرات المحتملة وأن نجعل المتعلمين قادرين على بناء سيناريوهات مستقبلية متجددة فاعلة تمكنهم من التكيف في عالم لا يتوقف عن التغيير وامضاً بكل جديد واعدأ بكل مدهش . ومن هذا المنطلق وبعيداً عن كل ممانعة ثقافية « يجب على المؤسسة التربوية أن تعمل جاهدة من أجل إعداد الأجيال لتقبل المتغيرات والمستجدات في عالم اليوم ، وأن تدعم أدوارها في نشر قيم الحدائة دون تفریط في وظيفتها التقليدية المتمثلة في خلق ممانعة ذاتية لدى الأفراد ضد الذوبان في العولمة المتوحشة » (29) .

(29) عبد الله الخياري ، مرجع سابق ، ص 47 .

## (و) بناء العقل العالمي ، فكر عالمي وتصرف محلي :

الإنسان اليوم يعيش في قرية صغيرة وبالتالي فإن الطابع العالمي يقوض أسس العالم المحلي ويتحرك على أرضه الخاصة . فالتشابك والارتباط والتداخل بين المحلي والعالمي يدخل مرحلة معقدة تزداد فيها غلبة العالمي على المحلي . ومن هنا يتوجب على التربية أن تعد الأطفال بمواصفات التحديات العالمية . وهذا يعني أنه يجب أن نكوّن الأطفال تكويناً يمتلكون عبره القدرة على فهم العالم بمشكلاته وتحدياته وتضايفه ومن ثم فهم طبيعة الترابط بين المحلي والعالمي بصورة منهجية . لم يعد اليوم ما هو عالمي عالمياً بالمعنى المحدود للكلمة فالعالمي اليوم يتحرك في أعماق وجودنا عبر شبكة من الوسائل والأدوات الاتصالية . والإنسان اليوم مكره على العيش في عالم جديد هو عالم يتصف بالعالمية بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من معنى . فالشركات والفنادق ووسائل الإعلام والبنوك والأسواق خرجت اليوم من دائرة المحلية على وجه الإطلاق وأصبحت ظواهر عالمية بدرجة كبيرة . ومن هنا يتوجب على التربية أن تعدّ الأطفال والتلاميذ والطلاب لعالم من هذا النوع .

إن المنطق الرئيسي للتعليم في عصر العولمة هو تطبيق للمعرفة عن العالم في مجتمع محلي واحد. والمنطق الذي يهيمن على التربية والتعليم يتمثل في شعار يقول « فكر عالمي وتصرف محلي » وهذا يعني معرفة شمولية بالثقافات المتعددة والأنظمة والقضايا العالمية من أجل اتخاذ قرارات أفضل في حياتنا اليومية . فمهارات التفكير النقدي مثل المقدرة على التنبؤ بالتحيز أو التعرف على الافتراضات الجوهرية كلها أمور هامة إذا كان يتعين على الطلاب تقييم المعلومات بدلا من قبولها كحقيقة أي صفحة مطبوعة أو قصة إعلامية.

## (ز) بناء العقل الحدائثي :

« في مستوى المناهج يجب إدماج قيم الحدائثية ضمن المناهج التعليمية وذلك من خلال التفتح على المعرفة الحدائثية والمضامين العصرية ، واعتماد تصور جديد للعلاقة بين التقليد والحدائثية في المناهج الدراسية . وذلك انطلاقاً من تقييم شامل للتعليم التي تنتهجها الأنظمة التعليمية حالياً ، وأيضاً من خلال فحص مجمل تلك القيم لتبيان هل هي قيم تقليدية في الأساس ؟ ، أم هي قيم يتعايش فيها التقليدي والحدائثي في إطار من التوازن ، دون أن تكون هناك هيمنة لأحدهما على الآخر ؟ ، أم أن قيم الحدائثية - التي تبثها الأنظمة التعليمية - تخفي بنية تقليدية عميقة توجه وتؤثر في السلوك والاتجاهات وتعمل على تحييد البنية السطحية التي تبدو حدائثية » (30) .

(30) المرجع السابق ، ص 48 .

### (ح) بناء العقل الشمولي؛

يأخذ البعد الشمولي في تكوين المعرفة أهمية تربوية بالغة فهي التي تستطيع أن تأخذ بيد الناشئة بعيدا عن الرؤى الضيقة والمجتزأة وهي التي تساعد الناشئة أيضا في تكوين روح فلسفية نقدية تتميز بطابع الشمولية . فالتجزؤ يؤدي إلى وضعية الانشطار المعرفي وإلى حالة من الاغتراب والتشوه . ومن هذا المنطلق ومن أجل بناء أناس يمتلكون ناصية القدرة على الإدراك الفلسفي المتكامل يتوجب على العملية التربوية أن تغذي الناشئة والطلاب بأهمية إدراك السياق العام لحالة الأشياء بالضرورة . وهذا يعني أنه يجب علينا أن نقدم المعلومات للأطفال والتلاميذ في سياقها العام وفي إطارها الشمولي . فعندما نحدث الأطفال عن التقدم التكنولوجي والتلوث بعيداً عن السياق العام للظاهرتين سيكون تأثير هذه المعلومات خافتاً وضعيفاً واهناً . وعلى خلاف ذلك عندما نقدم هذه المعلومات في إطارها العام وفي نسق أسبابها وظروفها الاجتماعية والسياسية والتاريخية فسيكون لهذه المعلومات تأثير علمي وسيكولوجي وتربوي بعيد المدى . فالمعرفة عندما تقدم في سياقها الموضوعي تلعب دوراً تربوياً وعندما تقدم مجزأة ومضوغة فإنها تؤدي وظيفة ربما قد تكون سلبية إلى حد ما . على سبيل المثال عندما نقدم للأطفال مشهداً تلفزيونياً منفصلاً عن سياقه العام من مشاهد المعارك التي يسقط فيها الناس ضحايا قد يكون لذلك بالغ السلبية أو الإيجابية فقد تكون المعركة دفاعاً عن الوطن ، وقد تكون حرباً بين العصابات ، أو قد تكون جريمة ترتكب ، وشتان بين كل حالة من الحالات ولكن عندما نقدم الحدث في دائرة مقدماته وعوامله فإن سقوط الضحايا قد يبدو أمراً سليماً من الناحية التربوية .

### (ط) بناء العقل المعقد؛

في عصر العولمة أصبحنا غارقين في التعقيد الذي يحيط بنا وأصبحنا نعوم في فيض المعلومات الذي يخنق إمكانات ذكائنا وقدراتنا العقلية في تنظيم هذه المعلومات والسيطرة عليها . وهنا يتوجب على الإنسان أن يكشف المشكلة الحيوية الأساسية أو أم المشكلات التي تشكل محور المشكلات الأخرى وهي مشكلة التعقيد الذي نعيشه في عصر العولمة . إننا نعيش في مركب من التناقضات والأزمات والمفاجآت الذي يمثل تفاعل وتكامل مجموعة كبيرة من المشكلات التي تحيط بنا وتحيق بوجودنا . إن ما يضاعف صعوبة فهم عالمنا يتمثل في طريقة التفكير المعاصر وهي طريقة تقتل في أعماقنا القدرة على الإدراك الكلي الشمولي والإدراك السياقي ثم الإدراك المعقد . فالظواهر المعقدة تحتاج إلى منهجية تفكير معقدة أيضاً قادرة على تحليل أوجه التعقيد في هذه الظواهر والنفاذ إلى جوهرها .



إن من أوليات متطلبات هذا العصر تتمثل في القدرة على التفكير الشمولي والقدرة على تحليل السياق المعقد للعلاقات والأشياء والمظاهر . وهنا تتبدى ضرورة التفكير في إصلاح منهج التفكير وتطوير قدرته على التعامل مع الطابع الشمولي والسياقي للعصر الذي نعيش فيه .

فالكون ليس نظاماً شمولياً فحسب بل هو دوامة من الحركة لا مركزية لها . ولذا فإن هذا التعقيد وهذه الدوامية من التغيير تحتاج إلى نوع من التفكير الشمولي المتنوع والمعقد قادر على اكتناه الطابع العالمي والكوني للأشياء وقادر على إدراك الوحدة والتنوع في الشرط الإنساني ، إنه نوع من التفكير متعدد الاتجاه مهياً لإدراك الظواهر في كليتها وشموليتها وتغايرها .

ومن أجل بناء هذا النوع من التفكير المعقد وتطوير منهجية النظر المركبة يبرز دور التربية المستقبلية التي يتوجب عليها أن تعمل على بناء الإنسان من أجل هوية متشعبة بالطابع الكوني .

#### (ي) بناء العقل الناقد؛

إن المزاوجة بين المعلومات المجردة وطرق الاستفادة منها تمثل أحد عناصر المشكل التربوي الأخرى ، والتي ليس لها حل مرض في ظل الأوضاع القائمة وفي ظل عملية التعليم بالجملة . إن الطريقة المثلى هي تعليم الطلاب التفكير الناقد الذي يؤهلهم إلى الاعتماد على النفس في تكوين الرأي . وليس على حجم المعلومات المخزنة ، هذا هو المنهج الذي اقترحه جون ديوي الذي تمرد على أسلوب بل / لانكستر . لقد اعتقد ديوي أن هذا المنهج هو الطريقة المثلى في إعداد المواطن الصالح . ولكن كل هذا سيقى جملاً إنشائية إذا ما ترجم إلى عمليات وتعريفات إجرائية (31) .

#### (ك) بناء العقل المستقبلي؛

إذا كانت الإنسانية قد أبدعت في القرن العشرين ما يفوق الحلم من اكتشافات علمية وتكنولوجية فإنه لمن المتوقع أن يشهد القرن الحادي والعشرون إبداعات واكتشافات تفوق حدود الخيال وشطحات الوهم وسيكون لهذه الاختراعات تأثير تهتز له أركان الحضارة الإنسانية برمتها . ومن هذا المنطلق يجب على المجتمعات الإنسانية أن توظف مخزون طاقتها الفكرية الإستراتيجية للتحضير لمثل هذه التحولات وتجنب الصدمات الهائلة التي يمكن أن تولدها في مستوى الحياة الثقافية والقيمية .

(31) خلدون حسن النقيب : المشكل التربوي والثورة الصامتة - دراسة في سوسيولوجيا الثقافة ، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية ، سلسلة الدراسات العلمية الموسمية المتخصصة ، العدد 19 ، يوليو / حزيران 1993 ، الكويت ، ص 13 .

إذ لا يمكن لإنسان اليوم ، على حد تعبير توفلر ، أن يفهم الماضي ، أو حتى لم يعد كافياً أن يتعلم كيف يفهم الحاضر ، لأن بيئة الحاضر سرعان ما تتلاشى ، إنه يجب عليه أن يتعلم كيف يحتسب اتجاه معدل التغيير وأن يتوقعه . إنه حسب التعبير الفني ، يجب أن يكثر من وضع الفروض الاحتمالية البعيدة المدى حول المستقبل ، وهذا ما يجب على معلمه أن يفعله أيضاً<sup>(32)</sup> .

ومن أجل إيجاد تعليم مستقبلي يتجاوب مع التطور المذهل في عالم العولمة سوف نحتاج إلى خلق صور متتابعة وتبادلية للمستقبل ، أي افتراضات حول الأعمال ، والمهن ، والحرف ، التي قد نحتاج إليها خلال العشرين أو الخمسين سنة القادمة . وافتراضات عن أشكال الأسر والعلاقات الإنسانية التي ستظهر ، وأنواع المشكلات الأخلاقية والمعنوية التي ستثور وأنواع التكنولوجيا التي ستحيط بنا ، والبنى التنظيمية التي علينا أن نبنيها<sup>(33)</sup> .

وبوضع مثل هذه الفروض ، وتحديدتها ، ومناقشتها ، ومنهجتها ، وتطويرها باستمرار ، سيمكننا أن نستنتج طبيعة المهارات الإدراكية والفعالة التي سيحتاج إليها أهل المستقبل لاجتياز أزمة التغيير المتسارع بسلام<sup>(34)</sup> .

#### رابعاً - خلاصة الدراسة

يعاني الطفل العربي ثقافة وهوية نسقاً من الإكراهات الاستلابية التي تحاصره وتضعه في دائرة محنة حضارية تراجيدية ومأساوية . فالطفل العربي محاصر بوضعية تخلف ثقافية تتسم بطابع الشمول والعمق والاستمرار ، وهو في الوقت نفسه مهدد بعولمة فضائية متوحشة تستهدف عقله ووجدانه الداخلي .

فالتربية العربية بأساليبها الاستلابية تقهر الطفل وتستلبه وتمنع عليه تفتح إمكانيات العطاء والإبداع وتعمل على تطويعه وترويضه وتدفعه إلى دوائر السلبية والقصور والعطالة والجمود ثقافياً وإنسانياً .

(32) ألفين توفلر : صدمة المستقبل أو المتغيرات في عالم الغد ، ترجمة محمد علي ناصيف ، نهضة مصر ، القاهرة ، 1990 ، ص424 .

(33) المرجع السابق نفسه .

(34) المرجع السابق نفسه .

ويأتي دور العولمة الثقافية عبر أكثر أدوات القهر فتكاً بالعقل والإنسان لتجهز على الطفل ثقافة ومصيراً ، إنها تجهز على ما تبقى من ومض حياة عقلية وروحية في الأطفال ثم تعمل بوسائطها على اختزال الأطفال إلى ركام مهزوم من الميول البدائية التي تحول الطفل إلى مجرد كيان ساذج تحركه نوازع الاستهلاك والشهوة والرغبة . فالعولمة لا تشكل وعي الطفل فحسب بل تهندس منظومة إدراكه للوجود وتولد فيه الميول الغريزية البدائية وتقتل في العقل كل إمكانيات النظر والتحليل والتأمل المنطقي والقدرة على التفكير المنظم . لأن السيطرة على البشر تبدأ بالسيطرة على عقولهم ونوازع تأملهم وتفكيرهم وهنا يكمن منتهى الخطر .

المعاناة الوجودية للطفل في مجتمع متخلف بأساليب تربوية مدمرة وثقافة مهزومة تمهد للعولمة وتأتي العولمة فتجهز على ما تبقى من أثر في الإنسان بوصفه جوهر إنسانياً . فثقافتنا بوصفها ثقافة متخلفة تضعف في الطفل إرادة الوجود وإمكانيات الإبداع والعولمة تجتث البقية الباقية إن كانت هناك بقية في الإنسان . ومع حجم المعاناة وحجم الخطر الذي يدهم الطفل وهو عبر الطفل يدهمنا ويدهم حضارتنا ووجودنا ما تزال بقية أمل وبصيص أنوار في نهاية النفق . وإمكانيات الإنسان في الخروج من المآزق لا حدود لها لأن العقل لا يمكن أن يسجن إلى الأبد . فرهان التغيير والتأثير في معادلة الوجود الحضاري أمر ممكن ومحتمل ويبقى قائماً .

في حلقة هذا الظلام الحضاري وفي زلزلة هذا الحصار الوجودي الذي يعانيه الطفل العربي توجد إمكانية النهوض وقلب المعادلة . ونهوضنا الحضاري يجب أن يبدأ بومض العقول الثائرة التي يمكنها أن تغرس روح التغيير والعمل والفعل والإبداع في اتجاه بناء الإنسان الجديد الذي يمتلك القدرة على التجاوب والنهوض . فالبداية في الإنسان ومن الإنسان في الطفل والطفولة .

وفي رحلة البحث عن مخرج حضاري وإنساني نحن مكرهون على تفكيك بنية التخلف ودراسة عوامله ، وبالتالي وفي هذا السياق نحن ملزمون بدراسة العولمة كظاهرة تاريخية ، لا ينفع رجمها أو قذحها ودمها . وعلى الأثر توجد لدينا إمكانية واسعة في إعادة النظر بأساليب تربيتنا للطفل وتخريب الطفولة من عوامل جمودها وتخلفها .

وبقى أن نقول بأن التربية التي تسود في مجتمعاتنا ما زالت تعاني من هيمنة أسطورية لمفاهيم وتصورات أشبه بالخرافات والأوهام ، وأنه يجب علينا إزاء هذا التحدي أن نحقق ثورة في المفاهيم التي تتصل بالطفولة وتربية الأطفال ، وعلينا أن نفتتح كل الأعشاب الضارة وخضراء الدمن التي نبتت في

تربة التربية التي نهجها حالياً في تربية الأطفال . وهي تربية تقليدية تدمر وتؤذي وتقتل وتضعف وذلك بدلاً من أن تبني وتصلح وتحمي وتقوي ، لأنه في التربية الحديثة حكمة تقول : كل ما لا يحيي يميت وكل ما لا يبني يهدم . ومعيار البناء الصحيح وفقاً للتربية الحديثة هو الوعي والوعي العلمي بأصول التربية الحديثة ومفاهيمها واتجاهاتها ونظرياتها وأسسها السيكولوجية .

وتأسيساً على ما سبق يمكن القول بأنه يتوجب علينا نحن العرب ، في مطلع هذا القرن الحادي والعشرين ، من مفكرين وسياسيين وعلماء وكتاب ودارسين ، أن نوجه طاقة إحيائية تنويرية في المجتمع تسعى إلى حماية الأطفال من كل أشكال الاغتراب والاستلاب وإلى تحصينهم ضد مختلف أشكال التحديات الحداثية التي تدهمهم دون رحمة في زمن التحديات . وغني عن البيان أن هذا الطموح الإنساني ينطلق من اعتبارين أساسيين :

أولاً - اعتبارات ذاتية في الطفولة عينها : حيث يتوجب علينا أن نؤكد من جديد بأن الطفولة يجب أن تكون غاية بذاتها ، لا بل يجب أن تكون غاية الغايات ونهاية كل طموح إنساني في مجال التربية والتعليم ، وهذا التوجه ينبع من اعتبارات أخلاقية وإنسانية ودينية ووجدانية تتجاوز حدود كل وصف وتصنيف .

ثانياً - اعتبارات حضارية وإنسانية ونهضوية : فالطفولة تشكل نقطة انطلاق كل محاولة نهضوية أو حضارية ، لأنها كما أسلفنا ، تشكل العمق الإستراتيجي في المجتمع والحياة ، والطبقة الأعمق في التكوين الإنساني ، ولذلك فإن أي محاولة للنهضة بالمجتمع لا تأخذ هذا التوجه بعين الاعتبار ستمنى بالإخفاق والفشل ، وبالتالي فإن أي محاولة أخرى تنطلق بعيداً عن هذه المرحلة لن تحظى بأي نجاح ممكن أو محتمل وبالتالي فإن درجة الإخفاق تكون أكبر كلما كانت المسافة الفاصلة بين مرحلة الطفولة ونقطة الانطلاق أكثر عمقاً واتساعاً .

وهنا وفي هذا السياق يتوجب أن نذكر بأن التربية العلمية الحديثة في مستوى الطفولة تشكل الشرط اللازم في كل إصلاح تربوي ممكن ومحتمل ، وأن الإصلاح التربوي يشكل العمق الإستراتيجي للإصلاح الاجتماعي برمته ، ومن هذا المنطلق يجب أن نقول بأن الرهان الحضاري لوجودنا وحياتنا المجتمعية يتمثل في مدى قدرتنا على إيجاد تحولات عميقة وبنوية في أساليب تربية الأطفال والعناية بهم وتنشئتهم وفقاً لأحدث معطيات المعرفة العلمية والنفسية .